مجلة الرائد

العدد : ٢٣٠ الموافق في جمادى الأولى ١٤٢٢ هجري ٢٠٠١/٩ ميلادي

عنوان المقال : القادة المصلحون أمل مفقود	الكاتب : ماجد رسلان

يقول تعالى : { **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** } [العنكبوت : ٦٩]

من خلال منطوق هذه الآية نجد أن هناك علاقة وثيقة بين الجهاد والمجاهدة ، والقدوة والقيادة ، والحكم والحكومة على كافة صُعد الحياة ، وبين تلقي الهداية من الهادي العليم البصير الحكيم .. سبحانه وتعالى .

كما أن هناك ارتباطاً وثيقاً بينهما وبين تبوئ مكانة الإحسان الرفيعة التي تجعل العبد - أياً كان موقعه - أوّاهاً منيباً أمةً وحده في ظلال عبادة مجيدة سامية كأنه يرى ربه ومولاه ، حيث تتراءى له الحقائق في كليات القضايا كفاحاً عين اليقين ، ويتعامل معها مجتمعة أو منفردة بشكل سليم وأصيل ، منها : حقيقة النفس البشرية وما جُبلت عليه ، وحقيقة الكون والتعامل معه حيث يعيش فيه ، وحقيقة الدنيا التي يتقلب فيها بين إقبال وإدبار ، وحقيقة التكاليف التي حُمّلها في دار الاستخلاف ، وحقيقة الأمانات التي نِيطت به ، وحقيقة دار الآخرة التي يتوجه نحوها لأنها المآل وفيها القرار بعد رحلات الكبد ، ومشاق السفر التي عَبَرَ فيها مفازات النكد .. !!

ومن خلال هذه الرؤية وهذا التعامل يدخل هذا العبد المكلّف دوائر الجهاد والمجاهدة من أوسع أبوابها المتعددة المختلفة على بَيّنةٍ وبصيرة .. وذلك بأخذه أسباب التهييء والاستعداد والتنظيم والترتيب للأوليات والمعالجة والمعاينة أثناء ملابسة شتى الأعمال من خلال التوفيق بين زمنين مختلفين محدود ومدود . أو بكلمة أُخرى من خلال استثماره عُمره القصير لكل ثانية فيه لكسب الوقت في تحقيق وتنفيذ مُختلف الأعمال المبرورة ، والتكاليف المطلوبة لتكون نتائجها وآثارها الطيبة مشعة بالخير عليه وعلى الحياة والأحياء من حوله ، لأنه ما جيء به إلى هذه الحياة إلا للبناء والإعمار والتطوير والتحسين والتجميل ..

إذن هناك تنافس شديد وسباق عتيد في ميدانين متباينين زماناً :

- ميدان حياته القصيرة الطموحة لتحقيق نتائج أوفى وأكرم وأكبر وأنفع ..
- وميدان واجباته المتعددة ومسؤولياته الكثيرة المُستخلف بها والباقية وراءه مع الزمن الطويل معلقة في أعناق الباقين من الخَلَف ؛ تنتظر من يحققها ويقوم بشؤونها وصيانتها ورعايتها ، إنْ كان هناك تقصير أو فقدان التوفيق الإلهي من السلَف لأمر ما ، أو لإعراضٍ ما أو لمخالفاتٍ لشرعة العليم الحكيم

الخبير ..

أيضاً هناك ارتباط طيب بين التوجه لمنزلة إحسان العبادة في كل درجاتها وألوانها ، وبين إحسان المعاملة لكل أشكالها الكثيرة ، فكلما ارتقت الأولى وارتفعت ، تبعتها الثانية وحلّقت . فبقدر ما يكون العبد الأوّاه منيباً وموصولاً بالركن الركين من معية ربه ﷻ ، يكون السداد والتوفيق ، وتكون العناية والمعونة لتحقيق صواب الإخلاص ، وإخلاص الصواب وحق اليقين ويقين الحق !!

بعد هذه التوطئة نقول :

الذي ينظر إلى تاريخ هذه الأمة يجد في زحامه رجالاً من مختلف الأصناف متفوقين تفوقاً هائلاً بَلَغ حَدَّ الإعجاز ؛ جاؤوا متناثرين على طول الزمن تناثر نجوم السماء في الليالي الظلماء ، لكنهم بددوا بوهج نورهم ظلمات عصرهم ، وفتكوا بعدلهم جَوْره وظلمه ، ومحقوا بالحق الصارم باطله وضلاله ، وغيبوا بزهدهم تَرَفَه ومجونه ، وردموا باستقامتهم أودية انحرافاته وغثاثاته ، وأزاحوا بسماحتهم أَثَرَتَه وجَشَعَه ، وأزالوا بغَدَق وابلهم الصَيّب جفافه الروحي والنفسي ، وإن سألتَ بأي شيء كان هذا ؟ فنقول :

إن هذا الغَدَق المبارك كان من مبادىء الإسلام العظيم ومضائه الدائم ، وصفائه الواصب الطيب ..

وإليك - أخي القاريء - عينة واحدة من هؤلاء المباركيين الطيبين من الحكام الصالحين المتقين .. وهو خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز ﷺ . يقول خالد محمد خالد - رحمه الله - في كتابه القيم (خلفاء الرسول) : « كيف ظهر هذا الرجل فجأة ؟ كيف بَزَغَ على نحو مباغت ، ومن أين جاء ؟ أكان القدر يُصيغه على عينه ليقدم به مُحَيّاً باهراً للفضيلة والخير ، في دنيا كادت تجدب من الفضيلة والخير ؟ أكان روح الإسلام يعمل في مثابرة غير منظورة ليثبت أنه لا يزال يُنجب من أبنائه البررة ورجاله الشاهقين المعجزين ما حسب الناس أن زمانهم ولّى ودرس ؟ أكان الضمير الإنساني قد أقلقه غياب القدوة الصالحة وإجداب الوجدان البشري منها ، فراح يبحث عن أقوى الناس ليحقق به وفيه ظهورها وتجلّيها ، وليذكر الطموح البشري بطريق القداسة ؟ أكانت الحقيقة قد سئمت عبقرية التنظيم والمعرفة والإدارة تعمل وحدها ، فراحت تهيب بعبقرية الروح كي تملأ الفراغ الموحش وتروي برهبانيتها

الناشطة وتبتلها عَقلَ الحياة .. ؟ أكانت فضائله الكامنة تنمو داخل نفسه نمواً غير منظور وتحتشد في تركيز هائل لتفجر في ميقات معلوم طاقتها الجبارة .. ؟

ألا إن ذلك كله كان ، وبهذا كله ومن أجل هذا كله جاء إلى الحياة هذا الرجل الجديد والزائر الجليل في رحلة سريعة لن تلبث إلا عامين وخمسة أشهر وبضعة أيام !! » ص[٦٩٦ - ٦٧٩] .

أجل جاء هذا أولاً من جهة عظمة هذا الدين . وجاء ثانياً من إمكانية تفوق الذين ارتبطوا به إيماناً وعقيدة وعملاً وأخلاقاً وروحاً وإدراكاً .. ارتباطاً صادقاً ارتفعوا به في أعالي آفاق الشموخ والارتفاع . حين غدوا صوراً مجسمة باردة لكل نبضات قلبه وخفقات روحه ، وإشراق تعاليمه وأصالة وحيه . ولنستمع : « لقد قضى - ابن عبد العزيز - عمره منذ طفولته ملتزماً أوامر الدين وحدوده ، لكنه اليوم وقد صار خليفة المسلمين ، فإن علاقته بالدين لم تعد علاقة المؤمن المطيع وحسب ، بل جاوزت ذلك إلى موقف الحارس والمنفذ والمسؤول عن ترجمة حقيقة الإسلام ومبادئه إلى طريق عام ، تسير فيه الدولة والمجتمع . وأما ولاؤه للأمة فهو في الحقيقة امتداد لولائه للدين . فالدين بوصفه كلمة لله ، استوصى أول ما استوصى بالإنسان ، والإسلام خاصة يعطي أكثر اهتماماته لقضية الإنسان ، على أن الظروف التي ولي فيها الخلافة كانت تعطي ولاءه لحقوق الناس وقوداً هائلاً من المظالم والمشكلات والأزمات التي خَلّفتها العهود الأموية السالفة . لقد حدد ولاؤُه هذا طبيعة مسؤولياته وفلسفتها وراح يحملها في مزيج عجيب من الإرهاق والإشفاق .. الإرهاق لنفسه حتى لا يكاد يعطيها فرصة للتنفس والإشفاق عليها أن يأتيها الموت قبل أن تفرغ من واجبها .. وإذا كانت الشهور التسعة والعشرون التي عاشها خليفةٌ تُعتبر بالنسبة للتاريخ الإنساني كله بمثابة لحظة .. فإن هذه اللحظة قد صارت من أعظم أزمان التاريخ تزكية للإنسان وتأثيراً في الحقيقة . إذْ أعطت البشرية في شتى عصورها وأديانها وأجناسها المثلَ على ما تستطيع الإرادة الإنسانية أن تحقق من قداسة وتصنع من إعجاز إذا جعلت لله رقيبها والحق كتابها .. لقد حرص ﷺ على أن يدرك الناس أن لا يأتيهم بجديد من المبادئ أو النظم ، فكل ذلك في قرآنهم ودينهم وتراثِ الرعيل الأول الصالح من خلفاء رسولهم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان . إنما هو يأتيهم بروح جديدة ، هي روح المسؤولية الورعة الصادقة يزكيها فهم سديد لجوهر الإسلام وأهداف شريعته .. » ص[٧٠٦ - ٧٠٧] .

وجاء ثالثاً من جهة إمكانية تكرار تجربة هذا التفوق والانقلاب والتصحيح وبقائه كلما كان هناك عزم أصيل ، وجهد موصول وتغيير نبيل لإحداث الانقلاب الهائل المنشود في النفوس الصادّة المعرضة والنفوس الشاردة الحائرة ، والنفوس القلقة المضطربة ، والنفوس الهاوية بشهواتها والهابطة بأهوائها والعابثة بمشكلاتها ، كما فعل الفاروق الثاني ابن عبد العزيز حين حمل مسؤولياته بأمانة الحاكم الرباني الذي تاجر مع ربه ﷻ تجارة لن ولم تَبُرْ أبداً ، لأنه ما تاجر بمصير أمته ودينها وبلادها وثرواتها وطاقات شبابها .. تجارة بائرة خاسرة ، ثم قال في صَلَفٍ وهذيان : { ... **مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ** } [غافر : ٢٩] . ولا تبجح في هذيان محموم : { ... **أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى** } [النازعات : ٢٤] كما فعل فرعون الهالك ، ومن هو على شاكلته اليوم !! إنما كان مستشعراً أنه المسؤول الأول والأخير عن أمته كافة والتي انتشرت في شتى أرجاء دولته المترامية الأطراف . تروي زوجه فاطمة بنت عبد الملك هذه الواقعة :

« دخلت عليه يوماً وهو جالس في مصلاه واضعاً خده على يده ، ودموعه تسيل .. فقلت له : ما بالك وفيم بكاؤك .. ؟ فقال : ويحكِ يا فاطمة .. إني ولّيتُ من أمر هذه الأمة ما ولّيت ، ففكرت في الفقير الجائع والمريض الضائع ، والعاري المجهود ، واليتيم المكسور ، والمظلوم المقهور ، والغريب والأسير ، والشيخ الكبير ، والأرملة الوحيدة ، وذي العيال الكثير ، والرزق القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض ، وأطراف البلاد ، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة ، وأن خصمي دونهم يومئذٍ محمد ﷺ فخشيت ألا يثبت لي حجة فلذلك أبكي ! » .

إن هذا البكاء الخاشع ، وهذا التوجع ما عرفهما إلا حين تحققت عنده مراقبة ربه في منزلة الإحسان ، وبلغت أوجها وتبوأ مرتبتها وارتقى شرفاتها في عبودية صادقة لله جعلته في أرقى درجات اليقظة وأرفع درجات معرفته قَدْرَ ربه ﷻ ، وكيف لا ولنستمع شاهدةَ عيانٍ ، زوجه المصون فاطمة : « لقد كان يذكر الله في فراشه فينتفض انتفاضة العصفور من شدة الخوف ، حتى أقول : ليصبحن الناس ولا خليفة لهم !! » .

هذا الذي أراد التغيير وحققه بشكل جذري ونقل الأمة من حال إلى حال ، وتحقق لدينه ما يريد من إعادة الحق إليها ، وإعادتها إليه ، إنه ما كان ليستطيع بعضاً مما حقق لو لم يبدأ بنفسه وأهله وأقربائه وأرحامه وكل من كان حوله ، إنه ورث الكثير الكثير من شمائل وصفات جده العظيم الفاروق الأول عمر بن الخطاب ﷺ الذي كان يجمع أهله إذا سن قانوناً أو حظر أمراً فيقول لهم : « إني قد نَهيت الناسَ عن كذا

عنوان المقال : القادة المصلحون أمل مفقود	الكاتب : ماجد رسلان

وكذا .. وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم فإن وقعتم وقعوا ، وإن هِبتم هابوا ، وإني والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه مني ، فمن شاء فليتقدم ومن شاء فليتأخر !! » .

هذا هو ابن الخطاب الذي كان مثال القدوة والأمين على مصالح الأمة ، والعفيف عن أموالها .. وكذلك كان ابن عبد العزيز مع نفسه وأهله ومن حوله حتى أن ضريبة صلة القربى والنسب كانت فادحة أليمة لكل من متَّ إليه بسبب ، لقد بلغت عزيمة هذا الرجل شأواً بعيداً لما اختارت باقتدار لنفسها طريق الدار الآخرة وما عند الله . فلا مجال للتفاضل بين دنيا فانية ، وأخرى باقية ولم يقف الأمر عند نفسه بل جعله متعدياً ومنسحباً على أهله وأولاده وأقرب الناس إليه ، فهذه زوجه أضحت لا تملك إلا ثوبين خشنين فقد حمل كل حلله وحللها ، وحلل أبنائه وبناته وأمر ببيعها ووضع أثمانها في بيت المسلمين . هذا الحاكم القدوة ، هذا الحاكم المتفوق .. كان يعيش لأمته لا لنفسه ، كان يُشقي حياته في شتى صنوف شظف العيش والرَهَق ليسعدها في كل متطلبات حياتها من الأمن والأمان ، والعيش الكريم دون أن يسمح لأي فردٍ منها أن يريق قطرة واحدة من ماء وجهه هباءً منثوراً ، ولو كان ذلك على حساب كل قطرة من دماء قلبه الطهور ، لأي فرد كان سواء كان مواطناً أو وافداً كما في اصطلاح عصرنا المشؤوم الأغبر !! .

أجل ! هذه هي أحلى صور الإيثار في أبهى ألقها وجمالها ، وهل هناك شهادة تتقدم على شهادة عدو لدود كان يتربص بالإسلام وأهله سوءاً . إنه (ليو الثالث) لما بلغه وفاة (ابن عبد العزيز) بكى عليه بكاءً مراً ، وحين سئل عن سبب ذلك قال في حقه هذه العبارة البليغة العظيمة : « مات والله ملك عادل .. ليس لعدله مثيل ، وليس ينبغي أن يعجب الناس لراهب ترك الدنيا ليعبد الله في صومعته ، إنما العجب لهذا الذي صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها ، ولقد كان حَرِيّاً أن يُعجَّلَ به ، فأهل الخير لا يلبثون مع أهله الشر إلا قليلاً !! » .

هكذا أبداً الربانيون المتفوقون ، هكذا أبداً الحكام المتقون الملهمون القادة .. لا يعيشون طويلاً لأن أرواحهم الحرة لا تطيق السجن في قفص من حمأ مسنون ، إنها تريد الانطلاق والتحليق بعد أن أرهقت أجسادها سهراً وعملاً موصولاً في شتى صنوف التكاليف والتبعات ، لتتخفف من أحمالها وتتحرر من أثقالها وتؤدي أمانات استخلافها بأمانة لمن بعدها ، عائدة إلى بارئها طاهرة الذيل واليدين .. راضية مطمئنة القلب .. وهكذا كان

مجلة المرابط

العدد : ٢٣٠ الموافق في جمادى الأولى ١٤٢٢ هجري ٢٠٠١/٩ ميلادي

عنوان المقال : القادة المصلحون أمل مفقود	الكاتب : ماجد رسلان

بطلنا المتفوق خامس خلفاء الراشدين . يقول خالد محمد خالد : « ثقلت الدنيا على البطل .. كما ثقل عليها ، فناءت تحت ضغط ورعه الصارم ، وعدله الحازم . لقد عقد عزمه على أن يحمل مسؤولية الحكم بضمير (عمر بن الخطاب) في زمن مختلف جداً ، بل مناقض جداً لزمن ابن الخطاب الذي كان يحيا في امتداد عصر الوحي والنبوة ، ومعه أعوان كثيرون على الحق والعدل ، أما ابن عبد العزيز فيحيا في ميراث مُلك عضوض وسنوات ترف وانحلال وضياع ، وليس معه على الحق أعوان إلا قلة نادرة تاهت في الزحام .. ولقد نجح فيما عقد عليه عزمه نجاحاً لا يُعرف له نظير .. بيد أن هذا النجاح الخارق تمَّ على حساب كل ذرة ، بل كل جُزيء من ذرة في عافيته وحياته .. وحين نستعرض برنامجاً من أيام حياته لا يأخذنا العجب لقصر مدة خلافته وعمره . بل يأخذنا العجب لأنه بكل هذا الجهد المميت استطاع جسمه أن يتحمل ويقاوم ويستمر في الحياة - على هذه الصورة - عامين وخمسة شهور .. إن قوة روحه لم تخذله أبداً .. فراح يسابق المنية إنجاز ما يستطيع إنجازه .. ويقول : إن لله شرائع وسنناً إن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها .. وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص .. أجل ! إنه لا يربطه بالحياة الدنيا إلا الرسالة التي حملها في عنفوان وتقى .. وأعطاها حياته في إخلاص وتبتل .. » ص[٧٨٦ - ٧٩٠] .

حقاً إنّ المتفوقين لا يعيشون طويلاً ، فحياتهم قصيرة كوميض برق يشع نوراً بزخم بما يكشف للسابلة طريقها لتتابع مسيرها على هدىً ونورٍ من الواحد الديان الذي اختارهم لهذه المهمة كما اختار رسله الكرام ، وإن تفوقهم غير العادي أهَّلهم لأن يُقدِّموا صنائعهم واختباراتهم في دنياهم ، ويجتازوا امتحاناتهم باقتدار وسرعة خاطفة وكأن هناك مؤشراً يعطينا إلماعة عن سر حياتهم القصيرة وإنجازاتهم العظيمة بأن النتائج لاختباراتهم وامتحاناتهم لن تتغير على طول المدى ، ولن تتبدل مهما طال بهم العمر ، أي أنهم لن يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، ولن يتحولوا عن الحق الذي في قلوبهم وعقولهم ، ولن يتركوا النور الذي في أبصارهم وبصائرهم ، مهما كانت أزمات حادة في اختبارات وامتحانات هذه الحياة ، وأن لله عزَّ وجلَّ صَدَّقهم في ولائهم وأعمالهم وعباداتهم وطاعاتهم .. واختارهم واجتباهم برحمته كما اجتبى رسله الكرام واختبرهم بشتى صنوف الامتحان ، فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام حين رأى في المنام أنه يذبح فِلذة كَبده إسماعيل عليه السلام ، فإنه لم يتلكأ لحظة في تنفيذ ما أوحي إليه . قال تعالى : { **فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۞**

وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ } [الصافات : ١٠٣-١٠٧] .

أجل إنهما اجتازا الامتحان وصدقت عزيمتهما حاضراً وستصدق مستقبلاً أبد الدهر ، مهما تكررت صور الاختبار ؛ فالمؤمن الرائد المتفوق أنى كان موقعه في مسارب العمل ، فهو كالطالب النجيب الذي شهد له أساتذته بالتفوق وأنه من أهل النجاح ، حيث يدخل قاعة الامتحان ويسابق الزمن في إجابته على الأسئلة كأنما يشرب كوباً من حليب على عَجَل ويخرج مسرعاً ليستقل القطار الذي تهيأ لرحلة العودة لينقله إلى منازله ومرابعه الأولى ، بعد ما أدى الذي عليه بأمانة وإخلاص وحب واقتدار !!